رؤية النظريات اللسانية الحديثة لمفهوم اللغة

م.د. وسن عبد علي

كلية التربية: جامعة القادسية

ملخص البحث:

للغة موقع متميز في بحوث الدراسات اللسانية الحديثة، بدءاً بآراء اللساني السويسري فرديناند دو سوسور (Ferdinand de Saussure) (١٨٤٧ – ١٩١٣) في كتابه"دروس في اللسانيات العامة" (Cours de Linguistique Générale) الذي نشره شارل باللي وسبشهاي سنة ١٩١٦، وختاماً بأفكار اللساني الأمريكي (نوام تشومسكي) Noam Chomsky ولد سنة ١٩٢٨ ويعمل في مجال البحث اللغوي منذ مدة تزيد عن نصف قرن، وتمكن عبر مراحل متتالية من تطوير اجتهاداته بصور شتى. ولا ريب في أن هناك عدة نظريات قد عالجت مفهوم اللغة، بل استندت في وضع تصوراته المختلفة إلى تحديدها الدقيق لمعنى اللغة شكلاً ومضموناً، ولا يمكننا أن نفهم معالم كل مدرسة ألسنية إلا بالإدراك التام لكيفية معالجتها المبدئية والأساس للمسألة اللغوية في ذاتها ولذاتها.

Abstract:

The language has a particular position in the modern linguistic researches like the earlier views by the Switzerland linguist Ferdinand de Saussure (1847 – 1913) in his book "Cours de Linguistique Générale" that was published by Charles Bally, Albert Sechehaye and Albert Riedlinger in 1916 in addition to the latest views by the American linguist Noam Chomsky (born in 1928) who has worked in the linguistic field for more than a half century and was able to improve his views through different ways. With no doubt, there are many fresh theories that have dealt with the concept of language in the lights of his views via giving precise border lines to the concept of language in terms of form and content. We can not comprehend the properties of each linguistic school unless we comperhend fully the way that it deals with the language itself in the first place.

مقدمة:

نعتقد أن هذا البحث محاولة في إضافة متخصصة في علم اللسانيات العامة لأنه يحاول إعادة قراءة مفهوم اللغة في ضوء مضامين النظريات اللسانية الحديثة التي وضعها نخبة من كبار علماء اللغة في الغرب مع تقييمها ومناقشتها بعد عرضها في جوانبها الكمية والكيفية.

ويجدر بنا أن نؤكد أن الفكرة الجوهرية في تحديد هدف اللسانيات المعاصرة بكونها ((دراسة اللغة في ذاتها ولذاتها))[1] مع تقديم مختلف المنطلقات والركائز النظرية والعلمية في هذه المسألة من خلال آراء سوسور القوية والمتقصّية قد أعطت هذه المدارس بنظرياتها المتعددة قواعد سليمة في إدارة الدرس اللغوي وإنجازه بما لا يتعارض مع الهدف الرئيس في موضوع هذا العلم الآنف الذكر.

وهكذا تكون اللغة البشرية قد تخلصت من كل ما هو ليس من نظامها الخاص، وأصبحت محل عناية اللغويين دون أن يقحم فيها من العوامل الخارجية التي تتنافى – على بحسب مؤسس علم اللسانيات – مع خصوصية نظامها الداخلي.

ويبدو سوسور بهذا الفصل قد وضع حداً بين اللغة كأداة تواصل دلالي يقوم على جملة من الأركان اللغوية مثل الأصوات والكلمات والتراكيب والدلالات وما يتعلق بهذه الحقول من مبادئ خاصة، هذا من جهة، وبين اللغة كمكون فكري عقلي يقتبس من العوامل الاجتماعية والثقافية والدينية والتاريخية على وجه العموم كثيراً من السمات التي لا بد لعالم اللغة أن يقوم أثناء تطبيق اللسانيات بعزلها وإيلاء اللغة كنظام حر ومستقل حقه من الدرس والتحليل.

ولذلك فإن اللسانيات العامة وتحديد هدفها ومجال علمها في جهود علماء اللسانيات المختلفة وما ساوقها من نظريات قد أنهى فعلياً قضايا الازدواج بين البحث اللغوي والتداخلات العقائدية كالتي حدثت لدى علماء اللغة العرب المسلمين، أو التداخلات الفلسفية والمنطقية كالتي جرت مع علماء اللغة الغربيين قبل القرن العشرين، مما جعل البحث اللغوي خاضعاً لعوامل خارجية لا تسهم في فهم اللغة كمكون دلالي تواصلي في ذاته وتتعمق علاقاته وقوانينه في أسسه وظواهره الفاعلة.

وسنحاول فيما يأتي من محاور متتالية أن نتقصى بشيء من التفصيل وجهاً واحداً لدى علماء اللسانيات الحديثة، وهو كيف قدمت كل نظرية اللغة كمفهوم وما هي الأطر المرجعية التي أعانت على صياغة الأصول اللسانية في كل نظرية ؟ كما سنلجأ إلى عملية ربط دلالي بديهي بين مختلف هذه الجهود لنبين في الختام الحدود التي استطاع بها هؤلاء الناس تطوير مجالات البحث اللغوي حتى صارت اللغة وما يتعلق بها حقلاً علمياً قائماً بنفسه.

ونعتقد أن أهم النظريات التي أثرت تحديد اللغة في جانبيها الشكلي والمعنوي هي الآتية:

أولاً: النظرية السوسورية (Theorie Saussurienne):

تُعدّ هذه النظرية من أكثر الجهود اللغوية ثراء ودقة، ومثلث النسق الذي ترجع إليه كل النظريات في تأطير عنايتها اللغوية، ولعل سوسور كان رائداً في وضع المبادئ الكبرى التي عزلت الدرس اللغوي عما سواه من مؤثرات غير لغوية وقام بإعطاء اللغة مكانة خاصة مع تحديد مجالاتها ومصطلحاتها العلمية بطرائق متطورة غطت حقول الأصوات والصرف والنحو والدلالة على حد سواء.

ونعتقد أن أهم ركيزة انطلق منها سوسور في بيان مفهوم اللغة هو قوله بوجوب التفريق بين ثلاثة أنواع من الأداء اللغوي [٢]: الكلام (Langage) واللغة (Langue) واللفظ (Parolc) ويهمنا هنا كيفية تحديد سوسر مفهوم اللغة في مختلف جوانبها الفعالة، ويرى في البدء أن اللغة هي [٣]:

١- أداة تواصل مكونة من علامات ودلالات أي شكل ومعنى.

٢- مؤسسة اجتماعية تسم مدونة (Nomenclature أو Corpus).

٣- نظام من العلامات المحددة التي تعبر عن أفكار معينة [٤].

٤- وحدة الكلام الاجتماعية التي تجعل من إمكان التواصل بين الأفراد الناطقين شيئاً ممكناً عبر مجموعة من المواضعات الضرورية فيما بينهم [٥].

٥- ملكة اجتماعية يتم أداؤها ضمن شبكة معقدة حال التواصل بين طرفين، فهناك عناصر مادية (موجات صوتية) وعناصر عضوية (تصويت واستماع) وعناصر نفسية (الصور العصبية والمفاهيم الذهنية) [٦]، أي تتخلص في صورة صوتية ومتصور ذهني داخل شبكة تواصل مغلقة بين الطرفين.

٦- كنز مودع في عقول الناطقين بها عن طريق ممارسة اللفظ في النصوص الخاصة بمجموعة بشرية معينة [٧].

٧- نظام نحوي تركيبي في كل دماغ الأفراد الذين ينتمون إلى مؤسسة اجتماعية واحدة أو في كل أدمغة الأفراد الاجتماعيين [٨].

٨- كيان دلالي أساسي أو رئيس لا يبدو كاملاً في دماغ واحد بعينه ولكنه يتجلى في صورته المثلى في المجموع كله [٩]، فلا يوجد ناطق مثالي للغة عند سوسر في أي مجتمع بشري كان.

٩- ذات طبيعة غير محدودة أي مفتوحة في مفرداتها المعجمية وما تدل عليه، ولكنها متجانسة والهدف الرئيس منها وحدة المعنى والصورة الصوتية الدالة عليه وهما عنصران ذوا مرجعية نفسية [١٠].

١٠- هي مادة وليست شكل متصور، أي لا يمكن لمسها وإنما يتم وعيها وإدراكها، فهي ذات صبغة تجريدية مطلقة قابلة للتطور والتوسع.

١١- كل صورة صوتية فيها يتم ترجمتها بصورة مرئية ثابتة، وهي خلاصة لعدد محدود من العناصر أو الصواتم تقابلها علامات مخصوصة أثناء الكتابة، فاللغة مستودع من الصور الصوتية يتم نقلها كتابياً في شكل دلالي واضح ومنظم، (وقد خصص سوسر فصلاً كاملاً في كتابه لدراسة كيفية تمثيل اللغة بواسطة الكتابة من ص ٤٤ إلى ص ٥٤ في المصدر نفسه).

١٢- يفصل سوسر بين اللغة كنظام دلالي قائم بنفسه له شكله المجرد وبين أعضاء النطق التي تقوم بإنتاج اللغة نفسها، ويجعلها عناصر خارجة عن عالم اللغة الداخلية [١١]، ولعله يقصد بذلك أن هذا الجهاز الصوتي ينتج آلاف اللغات البشرية، في حين تبقى اللغة نظاماً خاصاً.

١٣- يتدرج سوسر في بيان مفهوم اللغة عن طريق نقد الفكرة التقليدية حولها أن "اللغة قائمة من الألفاظ التي تتطابق مع مثيلاتها من الأشياء [١٢]، ثم يطور هذه المسألة ليبلغ مفهوماً تحليلياً دقيقاً، وذلك بتقديم الوحدة الصغرى في اللغة وهي العلامة اللغوية التي تصلح على مختلف العلامات المشكلة في نهاية المطاف لمفهوم اللغة قيد الدرس قائلاً: "العلامة اللغوية (Le Signe Linguistique) لا تمع بين شيء اسم بل بين متصور ذهني (Concept)، وصورة صوتية (Image acoustique) [١٣]، وهذه الصورة ليست الصوت المادي أي ذلك الشيء الفيزيائي المحض، ولكنها الأثر النفسي الذي يحدثه ذلك الصوت أي التمثيل الذي تقدمه لنا حواسنا، وهي صورة حسية ننعتها بالمادية من باب المقابلة مع الطرف الآخر من المعادلة اللغوية أي المتصور الذهني الذي يعد أكثر تجريداً [١٤]. وهكذا يفكك سوسر مفهوم اللغة في وحدته الصغرى أي الدال (Signifiant) والمدلول (Signifie)، فالدال ذو طبيعة لغوية صوتية صرفة، أما المدلول فذو طبيعة ذهنية تجريدية خالصة، وعملية الترابط الدلالي بينهما تؤدي إلى نعت الشيء الحقيقي في الواقع، وكأن اللغة نظام دلالي خاص ينقل بمقتضى قوانينه علامات

الحياة الكائنة بين الأفراد الاجتماعيين وفق اصطلاح وتواضع متفق عليه فيما بينهم.

١٤- هناك أخيراً نوعان من العلاقات اللغوية التي أكدها سوسر في دراسة مفهوم اللغة: الأول يتعلق باللفظ وهي العلاقات السياقية (Syntagmatiques) وتم في مستوى النص أو التركيب المنجز، وحقلها هو الجملة وما يتعلق بها من خيارات خاصة أثناء الإنجاز والأداء، أما الثاني فيتعلق باللغة كمدونة ذهنية تمد الفرد بكل ما يحتاجه في أداء الجمل والتركيب، وهي العلاقات الترابطية (Paradigmatiques)، وقد أسهب سوسر في بيان طبيعتها وأنها تلعب دوراً مهماً فيما يجب الاعتماد عليه من اللغة أو تركه أثناء الحديث، كما أن هذه العلاقات تبين ثراء اللغة ومدى إمكانية التصرف الدلالي في إنجاز المعنى المراد تبليغه في تركيب ما.

ولذلك فالعلاقات السياقية أو النصية تتصل بمحور التوزيع اللغوي حال الأداء والإنجاز، بينما العلاقات الترابطية أو الذهنية ترتبط بمحور الاختيار اللغوي في مرحلة الكمون، مما يؤدي إلى تزاحم مستويات اللغة في عقل الناطق بما يتناسب مع مقام الأداء أو التوزيع نفسه، فإذا صيغت الجملة انتهت هاتان العمليتان.

فنستخلص من المذكور آنفاً أن مفهوم اللغة لدى سوسر هو مفهوم بنيوي يقوم على أساس كونها نظام قائماً بنفسه مترابطاً فيما بينه ومستقلا عما غيره من أنظمة تواصل غير لغوية، والنظام مجموعة من الوحدات يقوم بينها عدد من العلاقات المتنوعة والمتآصرة فيما بينها، بحيث إن أي تغيير يطرأ على أحد عناصرها فمن شأنه أن يؤثر بكيفية ما على النظام كله، وهو نظام شكلي مجرد يتم تجسيده في التراكيب حال الأداء والإنجاز، ولكن على وفق قوانين وقواعد صارمة تفرضها اللغة نفسها على الأفراد الناطقين بها، ولا يمكنهم تجاوزها كما أنهم غير قادرين على تمثيلها تمثيلاً كلياً في حديثهم، وهي مدونة مثالية وكاملة في أدمغة المجموع كله، ويجري توظيفها في الحديث بدرجات متفاوتة وعلى بحسب ما يقتضيه المقام نفسه، ولا أدل على ذلك من جدلية العلاقات السياقية النصية والترابطية الذهنية، وهي تؤكد أن حقول اللغة واسعة جداً، وأن المتحدث لا يستثمر منها سوى جزء محدود ويسير.

ثانياً: نظرية سابير (Sapir):

لقد أسهم إدوارد سابير (١٨٨٤ – ١٩٣٩) بمجموعة من الأعمال اللسانية في دراسة اللغة بعده أداة تصنيف للتجربة، إلا أن أهم ما عُرِف به في مجال علم اللسان البنيوي كتابه "اللغة" الذي نشره بنفسه سنة ١٩٢١م، وبين فيه أن اللغة ظاهرة ثقافية داخل نظام السلوك البشري[١٥]. ويمكن اعتبار نظرية سابير أنها تتنزل ضمن أعمال البنيوية الوظائفية التي توجت بتأسيس نظرية مشتركة عرفت باسم "سابير وورف"، وهي تذهب إلى وجود علاقة وطيدة بين اللغة والفكر، وتنص على كوننا ((نحلل الطبيعة ونصنفها في خطوط بواسطة اللغة أي من خلال الأنظمة اللغوية المودعة في عقولنا))[١٦]. وكأنهما يقران بذلك أن اللغة هي نظام ذو طبيعة دلالية وظائفية ينطبق تماماً مع مختلف الموجودات والمتصورات المرئية في الحياة، بعد أن تحال في أدمغتنا إلى أنظمة ذهنية قابلة للتحليل والتمثيل عبر هذه اللغة نفسها.

وقد أدلى سابير بأفكار عدة حال فيها تحديد مفهوم اللغة ضمن هذه الرؤية السلوكية، ((وتتسم بقيامها على قاعدة شكلية ونظام من المفاهيم النحوية الداخلية ونسق من العلاقات التركيبية بين النظام الشكلي والإجراءات النحوية)) [١٧].

ثم يقدم تعريفاً دقيقاً للغة قائلاً: إن ((اللغة منهج إنساني محض لا غريزي لتبليغ الأفكار والمشاعر والأغراض بواسطة نظام من العلامات الموضوعية الاختيارية، وهي مبدئياً علامات مسموعة تحدثها ما يسمى "أعضاء الكلام"، فليس للكلام البشري قاعدة غريزية متميزة)) [١٨]. فلا مفر من الأخذ بعد اللغة نظاماً وظيفياً محكم البناء داخل التركيب النفسي أو الفكري للإنسان [١٩]، ويضرب سابير مثلاً لكلمة "منزل" معتبراً إياها علامة لغوية، ولكنها تدل أيضاً على "مفهوم" أو مضمون فكري داخل نسق من العلاقات والعناصر المتبادلة والمتعددة، والتي يربطها نظام جامع لتلك المفاهيم كلها.

بل ويوغل سابير في جعل اللغة وظيفة سابقة للعقل ضمن ما يسميه بمستويات التعبير العلامي (Semiologique) الأعلى مؤكداً أنه "ليس في اللغة ما هو ثابت غير شكلها الخارجي، في حين تختلف معانيها العميقة وقيمتها النفسية أو كثافتها اختلافا حراً بعلى بحسب إدراك الفكر أو اهتماماته المختارة، ولا شك في أنه يختلف أيضاً بعلى بحسب التطور الفكري العام، فيمكن انطلاقاً من هذه الوجهة اللغوية أن نحد اللغة باعتبارها أعمق مضامين الكلام أو المضمون الممكن له والحاصل بتأويل كل مكون من مكونات النظام اللغوي في إطار دلالاته المفهومية الخاصة، وينجر على ذلك مباشرة انعدام التلازم بين اللغة والفكر" [٢٠].

ثم يوضح سابير حقيقة اللغة التي تنشأ من اجتماع العناصر الأصول والعناصر النحوية والكلمات والجمل اجتماعاً طبيعياً بالمفاهيم أو مجموعة المفاهيم التي يتعلق بعضها ببعض في أنظمة متماسكة، جاعلاً

للوحدات الصوتية الأولية المطلقة في تشكيل مكونات اللغة المفيدة، ويسند إلى كل كلمة مفردة فكرة مخصوصة عبر مفهوم أو صورة ما.

ويحاول أن يجعل اللغة حقلاً من المفردات الدالة على أفكار، ولكنها تفتقر إلى العملية الوظيفية التي تتبدى قيمتها حال التواصل اللغوي بين الأفراد، فتحدث المفاهيم الخاصة بتلك الوحدات ضمن سياق النظام اللغوي العام والمتماسك [٢١].

ويمكن تلخيص رؤية سابير اللسانية عن اللغة في كونها بنية (Structure) وشكلاً (Forme)، "وتقوم على عناصر صوتية تربطها علاقات معينة، ولها أدوار وظيفية وتستقل تماماً عن المادة المحسوسة، وتمتلك اللغة عند سابير (كماً) كافياً من الوحدات الصوتية يكفيها في سد حاجات التواصل الاجتماعي والحضاري، لذا فإنها تتعامل مع متطلبات الجماعة اللغوية بمرونة واقتدار وقوة وتلزم ناطقيها بجزئياتها وطرائق أدائها وتلويناتها، فاللغة تكون فكر متكلميها" [٢٢].

وقد اقترح سابير في ضوء ذلك مجموعة من المفاهيم لمعالجة شكل اللغة المنجز أي النحوي التركيبي ليصل إلى المفاهيم النحوية الآتية:

١- المفاهيم القاعدية (الأصول).

٢- المفاهيم الاشتقاقية (الفروع).

٣- المفاهيم التعليقية المحسوسة.

٤- المفاهيم التعليقية المجردة.

وأنها في مجملها تلخص شكل اللغة الذي لا يستطيع أي فرد القيام بعمليات التواصل بدونها، فالنحو عند سابير بعد تآلف الوحدات الصوتية هو جوهر اللغة الذي يجعل صياغة الواقع ممكنة في أنماط لغوية شكلية متنوعة داخل النظام العام لها [٢٣].

ثالثاً: النظرية الوظيفية (Theorie Fonctionnelle):

يمثـل هـذا الاتجـاه مـارتيني (Martine) (١٩٠٨) وجاكبسـون (Jakobson) (١٨٩٦-١٩٨٣) وتروبتسكوي (Troubetskoi) (١٨٩٠-١٩٣٨)، ويلاحظ أن الوظيفية قد انطلقت من آراء سوسر، وعملت على تطويرها وتوسيعها، وسننظر إلى هذه النظرية بوصفها كلاً واحداً، لأن رجالها قد اتحدوا إلى حد ما في بيان مفهوم اللغة بالاستناد إلى أسس مشتركة تنطلق من دراسة كل ما هو وظيفي في اللغة، وجعلوا عناصر اللغة التي تحمل شحنة إعلامية هي محور بحثهم اللساني [٢٤].

وأهم المؤلفات التي صبغت هذا الاتجاه هي (مبادئ الأصوات الوظيفية) Principes de Phonologies لتروبتسكوي (وعلم وظائف الأصوات) "Phonologie" لجاكبسون و(مبادئ في اللسانيات العامة) "Principes de Linguistique Generale" لمارتيني، ثم توالت الأعمال الوظيفية حتى السبعينات في القرن الماضي [٢٥].

ويرى الوظيفيون أن "اللغة أداة تواصل تحلل بواسطتها التجربة البشرية تحليلاً يختلف من مجموعة إلى أخرى عن طريق وحدات ذات دلالة وشكل صوتي هي اللفاظم (Monemes)، وتقطع هذه اللفاظم بدورها إلى وحدات مميزة متتالية هي الصوائم (Phonemes)، وعددها محدود في كل لغة، كما أنها تختلف أيضاً من لغة إلى أخرى من حيث طبيعتها وعلاقة بعضها ببعض" [٢٦]. وثنائية التقطيع هذه تشترك فيها جميع اللغات البشرية، وهي من الكليات (Universaux) التي تقرها النظرية الوظيفية، وتسمح لنا عبر صوائم محدودة في اللغة أن ننتج قائمة لا نهائية من الألفاظ الدالة في التواصل، كما تفرض هذه الظاهرة على المتكلم أن يختار من المدونة اللغوية الوحدات التي تحمل وظيفة في أداء الرسالة، فالصوائم تتحول إلى لفاظم عن طريق التتالي والتتابع، وكذلك اللفظام تتحول إلى جمل ومقاطع نحوية تركيبية بالكيفية نفسها[٢٧].

ولذلك يركز أصحاب هذه النظرية في دراستهم الصوتية على مفهوم الوظائف التمييزية (Fonctions distinctives)، ويعدون أن اللغة تقوم على مستويين في الدلالة الوظيفية وهما:

١- مستوى التعبير (Le Plan de Lexpression).

٢- مستوى المضمون (Le Plan de Contenu).

ويتجلى الجانب الأول من ثنائية التقطيع (Double Articulation) أي اللفاظم في المستويين معاً، أما الجانب الثاني من هذه الثنائية أي الصواتم فيتعلق فقط بمستوى التعبير، فاللفاظم على الرغم من كونها محدودة فإنها تسمح لنا بتكوين قائمة مفتوحة من الكلمات، كما أن الصواتم رغم عددها البسيط الذي قد يبلغ خمسين صوتما في بعض اللغات فإنها تتيح لنا أن نشكل منها عشرات الآلاف من الدوال المختلفة [٢٨].

وقد حصر جاكبسون اللغة وظائفياً فيما سماه بدائرة التواصل اللساني، وحدد فيها مجموعة من الأركان التي تتحكم في عملية أداء المعنى وإنجاز الخطاب المطلوب، واقترح التواصل اللغوي ضمن الدائرة الآتية:

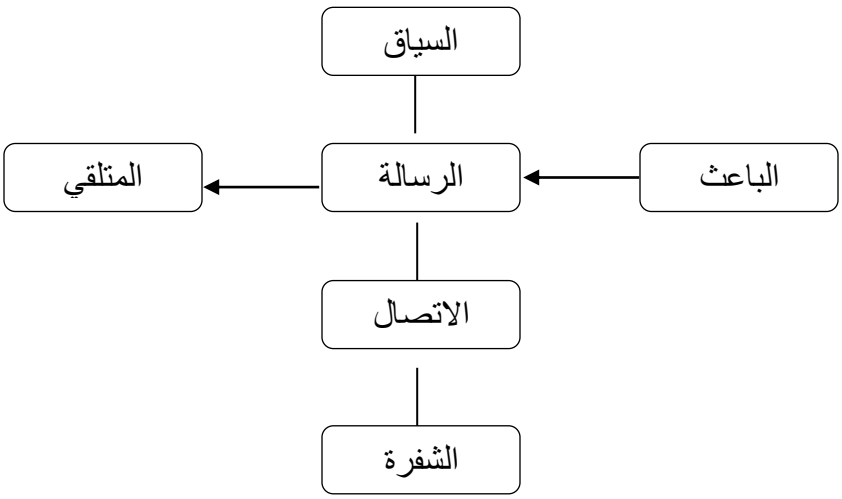

ونلاحظ فيها أن الاطراف ستة، فالباعث (Destinateur) هو الذي ينشئ الرسالة ويقوم بتبليغها إلى طرف ثان، والسياق (Contexte) هو المرجع والمقام الذي يربط جميع أطراف الدائرة، والشفرة (Code) هي أداة التواصل اللغوية المعروفة بين طرفي الدائرة وقد تكون الإنجليزية أو الفرنسية أو العربية، والاتصال (Contact) هو الباعث الذي يجعل عملية التواصل بين الطرفين ممكنة، ويعمل على حفظها وتحقيقها، والرسالة (Message) هو المضمون النصي أو الخطاب المراد إيصاله إلى الطرف الآخر، وأخيراً المتلقي (Destinatair) هو الطرف الآخر في الدائرة الذي يستقبل الرسالة ويقوم بفكها وإدراكها وتحويلها إلى نص تواصلي تمثيلي [٢٩].

فاللغة عندهم إذن نظام من العلامات المترابطة بشبكة من العلاقات وأداة تواصل وظيفية، وهذه الوظيفة أي العلاقة التي تنشأ في الملفوظ بين مختلف العناصر المكونة له هي المقياس الذي يعتمده اللساني لخيتار من الملفوظ ما هو أساسي في التواصل والتبليغ، أي ما يفيد (Pertinent)، وبغض النظر بالمقابل عما لا يفيد أي لا يحمل شحنة إعلامية أو إخبارية [٣٠].

وهكذا نلاحظ أن هذه النظرية قد أعطت اللغة مفهوماً واسعاً، وحاولت أن تعالج مختلف جوانبها بدءاً بالأصوات وانتهاء بالدلالة ودائرة التواصل اللسانية، ولعل السر في ذلك يعود إلى كونها أخذت اللغة كشكل ومعنى ودلالة مما جعلها أكثر قوة بعد نظرية سوسر في بلورة مفاهيم تطبيقية مباشرة في منهجها الوظيفي كماً وكيفاً.

رابعاً: النظرية التوزيعية (Theorie Distributionnelle)

تنسب هذه النظرية إلى اللساني البنيوي ليونارد مفيلد (L. Bloomfield) (١٨٨٧-١٩٤٩)، وظهرت مبادئها سنة ١٩٣٠م وفي كتابه الموسم بـ (اللغة) "Language"، جاءت عموماً كرد فعل على أفكار النحاة ذوي النزعة الذهنية، فأقصت المعنى من معالجتها لمفهوم اللغة وترى "أن أجزاء اللغة لا تلتقي بصفة اعتباطية، وإنما كل عنصر يحتل مواضع مخصوصة بالنسبة إلى غيره من العناصر" [٣١]، (وقد تأثر التوزيعيون بالمنهج السلوكي (Behaviourisme) في دراسة مفهوم اللغة، فهم يرونها سلسلة من الفعل المثير (Stimulus) ورد فعل الاستجابة (Reponse)، ويعدون معنى الرسالة ما يحصل عموماً من مجموعة مقام التواصل، فهذه الخلاصة في كليتها هي المعنى الذي يعتد به في هذا السياق، ويجب على اللساني أن يحلل عناصر اللغة ذات الكفاءة الممكنة أو غير الممكنة للتآلف فيما بينها، حتى نتمكن من بلوغ وصف شامل لها في حالتها التزامنية الآنية [٣٢].

وهو ما يقتضي الانطلاق من مدونة تمثيلية في شكل ألفاظ خطية متحدة ومعقدة تؤدي إلى تشكيل عناصر مختلفة في مستويات شتى من النظام، واللغة تتيح لنا مجموعة من الطبقات المنتظمة التي تغطي الأصوات والبني الصرفية والتركيبية، وكل وحدة طبقية يجري تحديدها بالاعتماد على مكوناتها بالنسبة إلى الطبقة اللغوية الأرفع منها، ويتم اللجوء إلى المعنى بصورة تقنية عندما نحتاج إلى توضيح هوية الألفاظ من عدمها [٣٣].

فاللغة شكل منظم يتكون من عناصر صوتية وصرفية ونحوية تتم دراستها ضمن تشكيلاتها داخل النص أو الخطاب نفسه وتحديد قواعدها التوزيعية، ثم إن بلومفيلد ومن سار حذوه من البنيويين "اعتقدوا أن المعنى أمر موسوعي والإحاطة به تتطلب الإحاطة بكل ما توصل إليه الإنسان من خبرات في عالم الحياة، وبما أن

مثل هذه الإحاطة الكاملة مستحيلة فإن البحث في علم المعنى يظل يشكل نقطة ضعف في الدراسات اللغوية، ولذا تجنبوا الخوض فيه أو أرجؤوه إلى حين اكتمال المعرفة الموسوعية والعلمية لعالم الخبرة الإنسانية" [٣٤]، وعلى الألسني أن يعالج اللغة بوصفها أشكالاً من الملفوظات التي يجري توزيعها على وفق نظام خاص من العلاقات والمكونات البنيوية.

ويقترن أخيراً الشكل اللغوي بالدلالة، فالمعنى أمر بديهي وحاضر في الملفوظات التي تشكل النص أو الخطاب، ولذلك يتمكن الألسني من دراستها، ويقسم بلومفيلد هذه الأشكال على نوعين:

١- الأشكال المقيدة (تمثلها أجزاء الوحدات اللغوية).

٢- الأشكال الحرة ونجد يها:

- الوحدات اللغوية المفردة وتسمى مستقلة.
- الوحدات اللغوية المزدوجة وتسمى غير مستقلة.

ويتم دراسة المكونات الطبقية المباشرة ابتداء من القمة إلى القاعدة، وهذا اللون من التحليل النحو للتراكيب اللغوي من أكثر الأساليب انتشاراً في أوساط اللسانيين في وقتنا الراهن"[٣٥].

وقد يكون من نتائج الاتجاه البلومفيلدي المتمثل في العناية بالبنية وإبعاد المعنى أن بدأ اللسانيون يميلون إلى الوصف القواعدي لبنية الجملة، فشاع عندهم ما يعرف بالتحليل التكويني المباشر الذي ترتبط فيه المصروفات (المكونات) بعضها ببعض في مشجرات، وقد مهد ذلك لظهور التوزيعيين الذين أخذوا الوصف اللغوي عندهم طابع العناية بالعلاقات التوزيعية بين الصواتم في المركبات المتألفة منها وبين اللفاظم، وعلى الرغم من أن هاريس (Harris) قد تمكن من تطوير جوانب من اللسانيات البنيوية فقد شاع إطلاق البنيوية حصراً على التحليل اللغوي الذي نظر له بلومفيلد" [٣٦].

خامساً: النظرية الجلوسيمية (Glossematique)

يمكن ترجمة الجلوسيمية تقريباً بالتحليل اللغوي شبه الرياضي، أما صاحبها فهو لويس يلمسليف (Louis Hjelmslev) (١٨٩٩-١٩٦٥)، وهو الذي أسس مع برونـدال (Brondal) حلقة كوبنهاجن اللسانية، وقد تقيد بآراء سوسر اللسانية في دراسة اللغة في ذاتها ولذاتها كنظام خاص ومستقل، وظهر تأثيره في علمي الدلالة والعلامية، وقد ظهرت هذه النظرية في كتابه الموسوم بـ "أسس النحو العام" (Principes de Grammaire generale) الذي صدر سنة ١٩٢٨م.

وتنظر هذه النظرية إلى اللغة، "وكأنها وحدة مغلقة على نفسها وبنية فريدة من نوع خاص، وتشبه في هندستها الداخلية وتوزيع طبقاتها اللسانية الأشكال الرياضية الجبرية، فاللغة شكل وليس بجوهر، وليس هناك من شيء سابق لنظامها، وكل لغة تطبق تقطيعاً مميزاً بها للواقع الخارجي" (٣٧).

وهكذا فإن هذه النظرية ترى أن اللغة تتحرك في مستويين: الشكل (Forme) والجوهر (Substance) أي مستوى ظاهري وآخر معنوي، وما يمكن وجوده في شكل اللغة الخارجي فإننا نتبين مقابله في محتواها الداخلي، وهذا الانطباق من جهة أخرى ليس حكراً على ظاهر اللغة وباطنها، ولكنه أيضاً ينطبق تماماً مع العالم الواقعي الذي تصفه اللغة، ولذلك نحن مطالبون على بحسب هذه النظرية بدراسة الشكل اللغوي فقط.

ويؤكد يلمسليف أن مستوى الشكل لا يعدو كونه إمكانات نطقية وسمعية تحدث عبر الأعضاء البشرية، أما الجوهر في اللغة فهو محور الاختيار الذي يسم نوعية هذه الإمكانات المنتجة والمستخلصة على مستوى الشكل نفسه (٣٨).

وقد اقترح وحدة لسانية صغرى تقابل ما هو معروف في الدراسة الصرفية أي اللفاظم، وسماها بالجلوسيم (Glosseme)، وهي البنية اللسانية الدنيا والثابتة التي لا تقبل التجزئة إلى ما هو أصغر منها على مستويي الشكل والجوهر اللغويين (٣٩).

كما اعتبر أن المتماثلات والاختلافات إنما تمس شكل اللغة لا جوهرها، وبهذا تختلف اللغات بعضها عن بعض، وبهذا تكون الجلوسيمية قد انتقدت بشدة اللسانيات الداخلية، واستندت في آرائها إلى اعتبارات تخرج عن طبيعة اللغة نفسها أي اللسانيات الخارجية، مع التقيد الشديد ببنية اللغة الشكلية.

ويكون يلمسليف قد "تأثر كثيراً بسوسر لا سيما في عنايته بالمباني (الأشكال) على حساب الجوهر (المحتوى)، وحاول أن يطور أفكاره البنيوية فيما عرف عنه بالتأويلات، ونتيجته لصعوبتها وطبيعة مصطلحاتها غير المتجانسة لم تنل تلك الأفكار العناية اللازم، ومن الانتقادات التي وجهت لتأويلات يلمسليف أنها نسخة نظرية وشخصية للسانيات سوسر، غير أنه طبقها على نحو فيه مغالاة منطقية" (٤٠).

سادساً: النظرية البرجماتية Pragmatique)

اختلف الدارسون العرب في كيفية ترجمة كلمة البرجماتية، وقد جرى الخلط بينها وبين المصطلح النفسي (Pragmatisme)*، وقد عثرنا على اصطلاحات عديدة لهذه النظرية مثل الذرائعية والتداولية والنفعية وعلم التخاطب (٤١) والقصدية (٤٢)، ونعتقد أن أنسب مفهوم لها هو علم اللغة التواصلي، لأن هذه النظرية تعني بالأداء والجوانب التخاطبية حال التواصل باللغة، وأهم أعلامها قرايس (Grice) وأوستين (Austin) وسيرل

(Searle)، وقد نشأت مع قرايس الذي أكد أهمية دراسة عملية التخاطب عن طريق جملة من المبادئ والمفاهيم الخاصة (وتفترض البرجماتية وجود توقعات بين المتخاطبين وأصول خطابية تحكم سلوكها واستنتاجاتهم في عملية الأداء،وقد عرف عن البرجماتيين تشكيكهم في فكرة قصر اللسانيات على دراسة الكفاية اللغوية بعيداً عن الاستخدام والسياق) [٤٣].

وهذا يعني أن عملية التخاطب لا تقتصر على المعطيات اللغوية، ولكنها تشتمل أيضاً على عناصر منطقية تعتمد على التداخل بين حقول معرفية عديدة.

ولعل هذا الاتجاه قد بات بعيدا عن إطار اللغة الذي رسمه سوسر، لأن أصحابه قد أقحموا اللغة في أحد حقول علم العلامات (Semiologie) حينما ركزوا جهودهم اللغوية على فهم اللغة من وجهة نظر مستخدميها، والخيارات التي يصيغونها حال توظيف اللغة في التفاعل الاجتماعي، مما جعل اللغة لديهم مزيجاً واسعاً من علم العلامات والدلالة واللسانيات الاجتماعية ومقتضيات السياق المنطقية التي يمكن أن ترتبط ارتباطا شكلياً ببنية اللغة، وهو ما جعلها غير واضحة المعالم في منهج بعينه قابل للتطبيق، كما أدت إلى اشتقاق العديد من المجالات العلمية في دراسة عملية التواصل اللغوي [٤٤]، فالبرجماتية تدرس اللغة عن طريق تحليل علاقة العلامات بمستعمليها، وبالمقابل نجد من يفرق بين معنى القول وهو معنى دلالي ودلالة القول وهو معنى برجماتي [٤٥].

وقد شددت هذه النظرية على أن اللغة هي أيضاً ميدان لإنجاز أعمال خاصة بها، وجرى اقتراح الأعمال اللغوية ضمن النقاط الآتية [٤٦]:

١- البرجماتية لا تربط العلامة اللغوية بمستعملها فقط، بل بالمؤسسة اللغوية في عمومها من حيث هي مجال من مجالات التعامل الاجتماعي.

٢- أنها كنظرية للتخاطب تؤكد التعامل من جهة المتكلم أكثر من تأكيدها من جهة المخاطب.

٣- أنها وهي تؤكد على الوجه العرفي لا تدريس ما يسميه سوسر بالكلام، وإنما تدرس استعمال اللغة في صورة مجردة، فهي لا تسعى إلى وصف خصوصيات في الكلام، بل تسعى من خلال دراسة الأعمال إلى البحث عن مظاهر عامة في استعمال اللغة.

سابعاً: نظرية فيرث (Firth) (١٨٩٠ – ١٩٦٠م):

تعرف مساهم فيرث اللسانية باسم (نظرية المعنى السياقية) Contextual Theory of Meaning، وقد انصبت عنايته في دراسة اللغة على علمي الأصوات والدلالة، وهي عادة العلماء الإنجليز منذ جونز (Jones)، وقد مثلت هذه النظرية تحدياً مباشراً لأفكار بلومفيلد في تلك الآونة، وقد قام هاليداي (Halliday) بتطوير أفكار فيرس لاحقاً، وضمنها أبعاداً جديدة بحيث لم تعد قاصرة على مستوى الجملة بل تجاوزتها إلى ما هو أكبر أي النص [٤٧].

"وكان الفضل لفيرث في تأصيل نظرية السياق من خلال وضعه للإطار المنهجي لتحليل المعنى الذي يعتمد على أربعة عوامل هي:

١- تحليل السياق اللغوي صوتياً وصرفياً ونحوياً ومعجمياً.
٢- بيان شخصية المتكلم والمخاطب والظروف المحيطة بالكلام.
٣- بيان نوع الوظيفة الكلامية: مدح، هجاء، طلب،... الخ.
٤- بيان الأثر الذي يتركه الكلام كالإقناع ،أو التصديق ،أو التكذيب ،أو الفرح ،أو الألم... الخ" [٤٨].

فاستعمال الكلمة في رأي هؤلاء اللسانيين يحكمه أمران: السياق اللغوي الذي لا ينظر إلى الكلمات كوحدات منعزلة، لأن الكلمة يتجدد معناها بعلاقتها مع الكلمات الأخرى، ولا يمكن أن تتضح الدلالات الدقيقة لها إلا عندما نضعها في سياقات مختلفة، وسياق الموقف الذي يتكون من ثلاثة عناصر وهي: شخصية المتكلم والسامع والعوامل الاجتماعية والاقتصادية الخاصة بالحدث اللغوي ثم الأثر الناتج من ذلك الحدث اللغوي [٤٩].

ويلاحظ أن مفهوم اللغة لدى هذه النظرية قد حال إلى مجموعة من الدلالات والعلاقات المرتبطة بسياق خطابي ما، مما يعني أنها تنظر إلى اللغة كمعنى يدل على وظيفة في سياق مخصص، وهو ما يعد تحولاً في الفكرة السائدة عن المعنى بأنه علاقة بين اللفظ وما يحيل إليه في الخارج أو الذهن من حقائق وأحداث [٥٠].

"إذ يرى فيرث أن الوقت قد حان للتخلي عن البحث في المعنى بوصفه عمليات ذهنية كامنة، والنظر إليه على أنه "مركب من العلاقات السياقية، وذهب إلى أن الوظيفة الدلالية لا تتأتى إلا بعد أن تتجسد القولة في موقف فعلي معين، أي بعد أن تخرج من خانة الوجود الوضعي الكامن إلى حيز الوجود الاستعمالي الفعلي، وهو أمر لا يتحقق – بحسب رأيه – إلا في سياق الموقف (Theory of Context of Situation)[٥١].

ثامناً: النظرية النفسية النظامية (Psycho Systematique):

أنشأها قوستاف قيوم (Gustvae Guillaume) ١٩٦٠م، وتمتاز نظريته بصيغتها الذهنية، وبلغت درجة قصوى من العمق والتجريد، وتجد الآن رواجاً في أوساط الألسنيين بسبب الرجوع إلى المعنى عند دارسي اللغة خاصة مع انتشار النظرية التوليدية التحويلية والاتجاه البرجماتي والسياقي في تحليل اللغة والخطاب، وقد تأثر بأفكار سوسر اللسانية [٥٢].

وقد ارتكز قيوم في نظريته على ثنائية الخطاب (Discours) واللغة (Langue)، وعدّ اللغة سابقة والخطاب لاحقاً لها، ويعرف اللغة "أنها نظام فكري – أي: أنها عبارة عن مجموعة أشكال فكرية (Schemes de Pensee) أو اتجاهات فكرية (Mouvements) ترتبط بعضها ببعض لتكون نظاماً مغلقاً –، وهذا النظام يتكون من أنظمة ذات مستويات مختلفة، وتتداخل بعضها في بعض، وتنتمي إلى بعضها كانتماء الجزء إلى الكل، أو الفرع إلى الأصل، ويلح قيوم "على الحركية التي تكتسبها هذه الأشكال الفكرية – فاللغة اتجاهات فكرية لا سكنات" [٥٣].

ويعني قيوم بكلمة نفسي "أن اللغة مسألة ذهنية فكرية قبل أن تكون مجموع علامات، أي إن العلامات ليست إلا تكريساً لعمليات فكرية تتطلب حلاً لغوياً للتعبير عن التجربة الكونية التي يعرفها الفكر وعن مقتضيات التواصل الاجتماعية، فاللغة هي تلك العمليات الفكرية التي من وراء كل علامة أو مجموعة علامات" [٥٤]، وهذه العمليات تحدث ضمن نظام واضح ودقيق وعبر أشكال ذهنية متحركة تحدد نفسها بنفسها.

وللعلامة اللغوية عند قيوم ارتباطان أي باللغة والخطاب، فالدال والمدلول في مستوى اللغة ذوا اتجاه واحد، في حين أنَّ الدال والمدلول في مستوى الخطاب ذوا اتجاهات متعددة؛ لأن وجود العلامات في اللغة هو وجود بالقوة، بينما وجودها في الخطاب هو وجود بالفعل، وقد وجه قيوم عنايته إلى دراسة المدلول اللغوي بالقوة ولكن ضمن ثنائية السابق واللاحق [٥٥].

أما الأمر الآخر الذي يميز رؤية قيوم تجاه اللغة أنه اعتمد في الدرس والتحليل على لسانية الكلمة بدلاً من الجملة؛ لأن الكلمة مكتملة وتنتمي إلى اللغة، في حين الجملة المنجزة تنتمي إلى الخطاب، وإن كان تركيبها العام ينتمي إلى اللغة [٥٦].

وهكذا يعتمد قيوم على ألسنية الكلمة مبدئياً للوصول لاحقاً وبصورة معقدة إلى ألسنية الجملة، وتبدو لنا اللغة كأولوية مطلقة في بحوث اللسانيات النفسية النظامية مع استبطان عميق للطبقات الذهنية إلى درجة التساؤل عن مدى التزامها فعلياً باللغة كنص منجز ضمن الوحدات اللسانية التركيبية.

تاسعاً النظرية التوليدية التحويلية [٥٧]:

Transformational Generative Theory

تمثل هذه النظرية عصارة الجهود اللغوية في الدرس اللساني الحديث، واستطاع صاحبها أفرام نوام تشومسكي (Avram Noam Chomsky) ولد في سنة ١٩٢٨) لأكثر من نصف قرن وحتى يومنا الحاضر أن يتصدر بأفكاره المتجددة والعميقة سدة الاجتهادات، وأن يطور رؤاه اللغوية تطويراً منطقياً بدءاً بتبنيه لفكرة التحويل ودورها في بناء نظم الكلام لأستاذه زيليج هاريس (Z. Harris) وختاماً بدراسة الروابط المنطقية بين عناصر التركيب ودور العلاقات الدلالية في النظم ومكوناته المختلفة.

"ولا جرم أن أفكار تشومسكي – التي كتب لها الذيوع والانتشار في أمريكا وأوروبا – قد كانت رد فعل لأفكار بلومفيلد وتصوره السلوكي للنشاط اللساني لدى الإنسان، ولقد تبنى تشومسكي ما يسمى بالنظرية العقلية (Mentalistic Theory) التي تربط اللغة بالعقل وليس بالسلوك، وتدرسها على أنها نشاط إبداعي وأن اللغة نشاط من عمل العقل، فهناك عوامل كامنة أي ليست سطحية تعمل على توليد تراكيبها، أو بعبارة أخرى يوجد شكل خارجي "آلي" وشكل داخلي عضوي للغة، ويعد الشكل الداخلي العضوي الأساس في التحليل اللساني لأنه يمثل البنية العميقة لما يحدث للبنية السطحية للغة.

لقد كان منهج التحليل البنائي للتراكيب قبل تشومسكي لا يفسر لنا كيفية إنتاج هذه التراكيب، ولهذا فقد كان منهج النحو التحويلي الذي أضيفت إليه صفة التوليدي فيما بعد – والذي يرمز إليه بالحروف G.T.G – آخر تطور للنظرية اللسانية في الدرس اللغوي في القرن العشرين" [٥٨].

وتمكن تشومسكي من وضع آرائه في تحديد اللغة على وفق تصوره المرحلي لها، أي إنه قدم لنا تعريفاته على بحسب إسهاماته اللسانية، ويمكننا أن نرصد في هذا السياق المراحل الزمنية الآتية [٥٩]:

الأولى: صدور كتابه الأول (البنى التركيبية) Syntactic Structures [٦٠] عام ١٩٥٧م، اعتبر فيه النحو أداة لتوليد كل الجمل النحوية، ويرى أن النحو يتكون من ثلاثة أقسام رئيسة هي:

بنية العبارة ، والتحويل ، والقسم المورفوفونيمي، ولكل من هذه الأقسام مجموعة من القواعد تطبق في تتابع محدد مثل جملة وعبارة فعلية وعبارة اسمية، وذكر نوعين من القواعد هما:

١- قواعد بنية العبارة مثل المفردات المعجمية والأقسام النظمية.

٢- قواعد التحويل وفيها نوعان من الوظائف هما:

- تغيير العلاقات النحوية مثل المبني للمجهول إلى المبني للمعلوم.
- تحويل الجمل البسيطة إلى جمل مركبة.

الثانية: صدور كتابه (ملامح النظرية التركيبية) "Aspects of syntactic theory" عام ١٩٦٥م، وطور فيه نظريته بإدخال عنصر الدلالة والفونولوجيا والعنصر النظمي، وتحدث عن العلاقات الدلالية ومفهوم البنية العميقة (Deep Structure) في مقابل البنية السطحية (Surface Structure)، وربط بين الشكل الصوتي للجملة بالبنية السطحية مع فصل هذه الأخيرة عن البنية العميقة في عملية التمثيل النظمي.

الثالثة: صدور كتابه الموسوم بـ "Extended Standard Theory" (النظرية الموحدة الموسعة) عام ١٩٧٥م، وركز فيه على جملة جديدة من المفاهيم اللغوية ذات العلاقة بقواعد الدلالة، وكيف تسهم عبر البنية السطحية وبتفاعل البنية العميقة في تحقيق التفسير الدلالي.

الرابعة: صدور كتبه "Government and Binding" عام ١٩٨٠م، ويضم نظرية العامل أو الحكم والربط، وتسمى بالإنجليزية، وهي على درجة كبيرة من التجريد. ويقصد بالربط الظروف التي تربط بعض عناصر الجملة، وأما العامل أو الحكم فيشير إلى السياقات التي تظهر فيها العلاقات.

الخامسة: تتميز بتنوع آرائه وثرائها ومحاولتها الدائمة تتغير اجتهاداته طبقاً لما يستجد في ميدان علم اللسانيات هنا وهناك، مع ملاحظة أن تشومسكي قد بلغ مرحلة متقدمة من التجريد المنطقي لمفهوم اللغة، وهو يسعى دوماً إلى إيجاد ما دعاه بالنحو العام لجميع اللغات البشرية، كما ظهرت تدريجياً نظرية المبادئ والوسائط "Principles and Parameters Theory" التي تبحث في مبادئ نظم الكلام على كل اللغات مع اختلاف الشكل من لغة إلى أخرى.

ونستطيع أن نلخص رؤية تشومسكي للغة في الاتجاهات الآتية:

١- يركز تشومسكي في تعريف اللغة على اتجاهين. الأول: عام صالح لجميع اللغات فهي "كل لغة طبيعية تحتوي على عدد متناه من الفونيمات (أو من الحروف الأبجدية) وكل جملة بالإمكان تصورها كتتابع من الفونيمات مع العلم أن عدد الجمل غير متناه" (٦١).

والثاني: خاص فهي "مجموعة جمل كل جملة منها تحتوي على شكل فونيتيكي (صوتي) وعلى تفسير دلالي ذاتي يقترن به، وقواعد اللغة هي التنظيم الذي يفصل هذا التوافق بين الصوت والدلالة" (٦٢).

للغة وجهان أحدهما ذهني خالص يوجد بالقوة والكمون سماه الكفاية (Competence) والآخر

إجرائي منطوق ومسموع سماه الأداء (Performance) [٦٣].

٢- اللغة ملكية لسانية ومزيَّة إنسانية مكتسبة يمثلها الناطق المثالي عن طريق الجمع بين أصوات تحتوي على دلالات [٦٤].

٣- تقوم اللغة في جانبها البنائي على مبدأين كبيرين ،هما: التوليد ، والتحويل، وضمن ثنائيتين أساسيتين هما: البنية السطحية ،والبنية العميقة، فالتحويل يرتبط ببنية النص السطحية، أما التوليد فببنية النص العميقة وهو مستوى عميق خاص ومستقل عن المكونات الصرفية والصوتية والدلالية [٦٥].

- **خاتمة ونتائج البحث:**

يتجلى لنا مما سبق أن الدرس اللساني قد شهد عدة تطورات في تحديد اللغة، وأن اللغة قد تبوأت الصدارة وكانت بمثابة المدخل الرئيس في تشكيل رؤى وأفكار كل نظرية.

كما نلحظ أن جهود سوسر تميزت بقوتها وشموليتها، إذ ما نظرنا إلى مرحلة تأسيس علم اللسانيات العامة ومحاولة هذه النظرية وضع المبادئ العامة، وكأن هذا العلم قد عرف حقبتين كبريين تميزتا بالثراء والتنوع وهما:

١- التأسيس مع سوسر حتى أصبح كل عمل تلاه نوعاً من التلوين والتدوير لأفكاره الأولى بشأن مفهوم اللغة وكيف يتم التعامل معها في ذاتها ولذاتها كجهاز ذاتي مستقل عن العوامل الخارجية غير اللغوية.

٢- التجذير مع تشومسكي حتى تمكن من استقطاب مختلف الجهود الحديثة، ولعل السر في ذلك مثابرته على فهم كل فكرة جديدة تطرأ لدى أي لغوي، والعمل الدؤوب على تعديل آرائه في ضوء الأبعاد القيمة لهذه الفكرة، مما جعل نظرياته تحتل موقعاً خاصاً ومميزاً في الدرس اللساني، بل أضحت مرجعية أساساً لكل معاصريه من رواد هذا العلم.

فهاتان المرحلتان هما كقوسين يفسران كيفية تطور مفهوم اللغة من موقع إلى آخر حتى وجدنا نظرية اللساني الأمريكي كينيث بايك (K. Pike) والمسماة بـ "Tagmemic Theory" تذهب إلى تحديد اللغة في نطاق ما يسمى بفكرة "القوالب" [٦٦]، وأن اللغة – على بحسب هذه النظرية – عبارة عن مجموعة من القوالب (Tagmemes) فيها فجوات (Slots) يتم ملؤها بمسدات (Fillers)، وكل قالب يتألف من عناصر تعمل على تشكيل التراكيب اللغوية ضمن الوظائف المعروفة نحوياً، كما تميز هذه النظرية في اللغة ثلاثة أنظمة تدريجية وهي: النظام النحوي والنظام الصوتي والنظام المعجمي، وكل نظام يحتوي على عدة مستويات ترتبط فيما بينها بعلاقات ووظائف.

وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على الثراء والتنوع الفكري الذي رافق طرح آراء سوسر الجريئة عن مفهوم اللغة

ومحاولاته إيجاد حقولها الخاصة بها، مما أكسبها لاحقاً ميادين واسعة تمثلت في جملة النظريات التي قمنا ببسطها في نطاق هذه الدراسة المتواضعة.

ويجدر بنا أن نبين أن مختلف المسارات اللسانية قد اقتبست الأسس السوسرية حال تحديدها لمفهوم اللغة، وليس ذلك عيباً وإنما هي مَزيَّة تؤكد حقاً أن جهود اللسانيين هي ثمرة تراكم معرفي بحت، ولا يمكن فصلها بعضها عن بعض وأن المستفيد الوحيد من ذلك هي اللغة في ذاتها ولذاتها.

وهكذا نستطيع في ختام البحث أن نصل إلى أنّ نهج سوسر اللساني في تحديد اللغة ضمن ثنائية العلامة اللغوية أي الدال والمدلول من جهة والشيء الحقيقي وما يدل عليه في ذهن المتكلم من جهة أخرى قد هيمن على جميع أعمال وجهود اللغويين المتأخرين، وأن آراءهم هي مجرد تلوينات وتقليبات لفكرته الجوهرية عن حقيقة اللغة.

وحتى نزيل الغموض والالتباس فيكفي أن نشير إلى أن فكرة تشومسكي الجوهرية في تحديد اللغة البشرية والمتمثلة في التحويل والتوليد هي تلوين لغوي لفكرة سوسر كونها – أي اللغة – تخضع لعلاقتين:

الأولى: سياقية مجالها النص، والثانية ترابطية مجالها الذهن، وهنا نفهم حقيقة البنية السطحية والبنية العميقة مع الاعتراف بخصوصية الطرح لتشومسكي.

أما فكرته بشأن الكفاية والأداء فهي أيضاً محاكاة بصورة ما لفكرة سوسر عندما ميز بين الكلام واللغة واللفظ، فتبنى تشومسكي ثنائية اللغة واللفظ، وطورهما في إطار تحديد سوسر بكون اللغة كنزاً مودعاً في عقول أصحابها، ليبلغ ذروة رؤاه التوليدية بما سماه الناطق المثالي.

ويبقى سوسر – إذا أخذنا في تصورنا الفارق التاريخي – الأكثر دقة وحكمة في دراسة مفهوم اللغة، كما أنه كان متقصياً وشاملاً في تأسيس جميع مبادئها الكبرى، خاصة نهجه في معالجة ثنائية الدال والمدلول الذي أصبح نسغ كل اجتهاد لساني على امتداد مختلف النظريات اللسانية الحديثة.

ونتطلع حالياً إلى منهج خاص في معالجة اللغة يأخذ في على بحسبانه أحدث الوسائل التي يتم توظيفها في الدرس اللغوي، ونقصد بذلك الحواسيب، وما نتج عنها من "علم اللسانيات الحاسوبية" (Computational Linguistics) [٦٧]، وكذلك تطور ما يسمى بعلم "اللسانيات المعرفية" (Cognitive Linguistics)، مما يبشر بحقبة علمية متطورة قد تجعل من درس اللغة ظاهرة فريدة تتناسب مع خصوصية العصر القادم كماً وكيفاً.

المراجع

- إدوارد سابير، اللغة، ترجمة: المنصف عاشور، الجزء الأول، الدار العربية للكتاب، تونس، ط١، ١٩٩٥.
- رومان جاكبسون، النظرية الألسنية، فاطمة الطبال بركة، المؤسسة الجامعية، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
- سوسر: دروس في الألسنية العامة، فردينان دي سوسر، تعريب: صالح القرمادي ومحمد الشاوش ومحمد عجينة، الدار العربية للكتاب – تونس، ط/١ ١٩٨٥.
- سامي عياد حنا وآخرون، معجم اللسانيات الحديثة، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
- كلاوس هيشن، القضايا الأساسية في علم اللغة (مترجم)، ترجمة / سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، القارة، ط١، ٢٠٠٣م.
- طالب عبد الرحمن، دراسات حديثة في اللغة والنحو وأثر الترجمة في العربية، مركز عبادي، صنعاء، ط١، ٢٠٠٥م.
- سامي عياد حنا وآخرون، معجم اللسانيات الحديثة، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
- محمد محمد علي، مدخل إلى اللسانيات، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.
- ميشال زكريا، بحوث ألسنية عربية، المؤسسة الجامعية، بيروت، ط١، ١٩٩٢.
- شاهر الحسن، علم الدلالة السمانتيكية والبراجماتية في اللغة العربية، دار الفكر، الأردن، ط١، ٢٠٠١م.
- كلاوس هيشن، القضايا الأساسية في علم اللغة (مترجم)، ترجمة / سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، القارة، ط١، ٢٠٠٣م، ص ١٣٩ – ١٥٢.
- عبد القادر عبد الجليل، علم اللسانيات الحديثة، دار صفا، الأردن، ط١، ٢٠٠٢م.
- عبد القادر المهبري وآخرون، أهم المدارس اللسانية، المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، ط١، ١٩٨٩م.
- محمد محمد الخربي، قائمة الأعلام في "الزمان والمكان في القصص القرآني"، أطروحة الدكتوراه الموحدة، جامعة تونس الأولى، تونس، ١٩٨٩.
- ميشال زكريا: "الألسنة التوليدية والتحويلية قواعد اللغة العربية"، المؤسسة الجامعية، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م.
- Cours de Linguistique Générale, Ferdinand de Saussure, Payot, Paris, 1982.
- David Crystal, A Dictionary of Linguistics and Phonetics, Blackwell, U.K. 4th edition, 1998

Jean Dubois, Dictionnaire de Linguistique, Larousse, Paris, 2ème édition, 2001

- **هوامش البحث:**

([1]) Cours de Linguistique Générale, Ferdinand de Saussure, Payot, Paris, 1982, p. 317.

([٢]) ينظر : المصدر نفسه : ٢٣ – ٣٥، ويحاول سوسر هنا التفريق بين هذه المصطلحات جاعلاً الكلام نظاماً عاماً يحتوي على اللغة وما ليس من اللغة، أي أنه يتضمن على جانب فردي واجتماعي ونفسي... الخ، بينما اللغة هي نظام دلالي صرف وهو هدف اللساني، أما اللفظ فإنه الإجراء الذاتي للمتحدث، أي صورة شخصية للناطق باللغة، فهو محدود المعالم ونوع من الانتقاء البياني داخل المدونة اللغوية ذاتها، فهو يتضمن بعض سمات اللغة وغير صالح لكي يعمم على المدونة ككل.

([٣]) تم استنباط هذه النقاط من مصدرها الأول وعبر فصول الكتاب المختلفة وكان أهمها:

- المقدمة
- ألسنية اللغة وألسنية اللفظ.
- مبادئ عامة حول طبيعة العلامة اللغوية.
- اللسانيات التاريخية التعاقبية.
- اللسانية التزامنية الآنية.

([٤]) المصدر نفسه: ٢٦.

([٥]) نفسه، ٢٧.

([٦]) نفسه :٢٩، ٢٨.

([٧]) نفسه : ٣٠.

([٨]) نفسه :٣٠.

([٩]) نفسه : ٣١.

([١٠]) نفسه : ٣٢.

([١١]) نفسه : ٣٦، ٣٧.

([١٢]) نفسه : ٩٧.

([١٣]) هناك تردد وحرج في ترجمة (Acoustique) بصوتي، وهو أمر محمود في هذا العلم، إلا أنه من المعروف في اللغة العربية أن ما يصدره الإنسان هو صوت، وأن ما يسمعه هو صوت، فلا حرج من استخدام المقابل "صوتي" لأن العلة الحقيقية في تعريبها بكلمة دخيلة أي صورة أكوستيكية بذريعة ألا وجود لمقابلها في لغتنا، وهو أمر مذموم ولا معنى له، فمن المعلوم أن لغتنا ثرية جداً في الدرس الصوتي، وإنما المطلوب فهم مقامات الاستدلال لا أقل ولا أكثر دونما تعصب للغة دون أخرى أو لعقلية على حساب أخرى.

([١٤]) ... Cours de Linguistique : ٩٨.

([١٥]) اللغة: إدوارد سابير : ٥– ٦.

([16]) A Dictionary of Linguistics and Phonetics, David Crystal, Blackwell, U.K. 4th edition, 1998, p. 339.

([١٧]) اللغة، إدوارد سابير: ٦.

([١٨]) المصدر نفسه :٢٠.

(١٩) المصدر نفسه : ٢٢.

(٢٠) المصدر نفسه : ٢٦.

(٢١) ينظر: الفصل الثاني الموسوم بـ "مكونات الكلام" من الكتاب نفسه، ويقع بين الصفحتين ٣٩ – ٥٨.

(٢٢) علم اللسانيات الحديثة، عبد القادر عبد الجليل : ٢٥٥ – ٢٥٦.

(٢٣) ينظر: اللغة، الفصل الخامس الموسوم بـ "الشكل في اللغة: المفاهيم النحوية" : ١١٥ – ١١٦.

(24) Dictionnaire de Linguistique, Jean Dubois, Larousse, Paris, 2ème édition, 2001,p. 205.

(٢٥) ينظر : قائمة الأعلام في "الزمان والمكان في القصص القرآني"، أطروحة الدكتوراه الموحدة، محمد محمد الخربي : ٣١١ – ٣١٨.

(٢٦) أهم المدارس اللسانية، عبد القادر المهبري وآخرون :٤١.

(٢٧) المصدر نفسه : ٤٢ –٤٣.

(٢٨) ينظر: Dictionnaire de Linguistique، جون دوبوا، : ٢٠٥ –٢٠٦.

(٢٩) المصر نفسه : ٩٤ – ٩٧. وينظر: النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، فاطمة الطبال بركة، الفصل الثاني الموسوم بـ "المبادئ العامة" ويشدد فيه جاكبسون على العلاقة الوطيدة بين الشكل والمضمون ويؤكد أن اللغة ليست سوى إعادة صياغة المفهوم الدلالي للكلمات، وأنه ليس باستطاعتنا أن تحلل اللغة أو النظام النحوي دون الرجوع إلى دلالة الأشكال (المضمون)،كما يشدد على أهمية السياق الاجتماعي في فهم وظائف الكلام داخل دائرة التواصل اللسانية.

(٣٠) أهم المدارس اللسانية، :٥١.

(٣١) ينظر: Dictionaire de Linguistique، :١٥٦.

(٣٢) المصدر نفسه : ١٥٦.

(٣٣) المصدر نفسه : ١٥٧.

(٣٤) علم الدلالة السمانتيكية والبراجماتية في اللغة العربية : شاهر الحسن : ٨٨.

(٣٥) ينظر: علم اللسانيات الحديثة: ٢٥٧ – ٢٦١.

(٣٦) مدخل إلى اللسانيات، محمد محمد علي : ٦٩، وينظر: بحوث ألسنية عربية، ميشال زكريا، في الجزء الخاص بتعريف الألسنيين للغة، ويبين في أن بلومفيلد ينظر إلى اللغة على أنها عادة إنسانية كلامية، وهي نظرة سلوكية في علم النفس، ويعد أن عملية التكلم تخضع إلى تأثير المثير وإلى الاستجابة الكلامية خلال ترعرعه في بيئته، فهي أي اللغة تقوم على تكرار عمليات الاستجابة إلى المثير الذي يحركها، ويلخص ميشال زكريا رؤية بلومفيلد للغة في النقاط الآتية:

١- اللغة عادة كلامية يكيفها المثير.

٢- اللغة ميزة إنسانية مكتسبة.

٣- تختلف اللغات من مجتمع للآخر.

٤- اللغة أصوات وتوزيعات شكلية علائقية.

(٣٧) ينظر: Dictionnaire de Linguistique: ٢٢٣-٢٢٤.

(٣٨) المصدر نفسه، : ٢٢٤.

(٣٩) المصدر نفسه : ٢٢٤.

(٤٠) مدخل إلى اللسانيات، محمد محمد علي : ٦٨.

(٤١) المصدر نفسه: ١٠٢.

(٤٢) دراسات حديثة في اللغة والنحو وأثر الترجمة في العربية، طالب عبد الرحمن :١٢٩.

(٤٣) مدخل إلى اللسانيات، : ١٠٢.

(٤٤) ينظر: A dictionary of Linguistics and Phonetics : ٣٠١- ٣٠٢.

(٤٥) أهم المدارس اللسانية: ١٠٠، ١٠١.

(٤٦) للتوسع في هذه المسائل يمكن العودة إلى كتاب "أهم المدارس اللسانية: ٩٥ – ١١٩.

(٤٧) مدخل إلى اللسانيات: ٧٨، ٨١.

(٤٨) معجم اللسانيات الحديثة، سامي عياد حنا وآخرون: ٢٩.

(٤٩) المصدر نفسه: ٢٨، ٢٩.

(٥٠) مدخل إلى اللسانيات: ٧٨.

(٥١) المصدر نفسه :٧٩.

(٥٢) أهم المدارس اللسانية: ٥٣- ٥٥.

(٥٣) المصدرنفسه: ٥٧.

(٥٤) المصدر نفسه : ٥٧- ٥٨.

(٥٥) المصدر نفسه: ٦٠.

(٥٦) المصدر نفسه : ٩٤.

(٥٧) ينظر في "معجم اللسانيات الحديثة":١٩ – ٢٣، مقدمته الموسومة باللسانيات، للإطلاع على سرد تاريخي دقيق لنظرية تشومسكي وكيفية تطورها، وانظر أيضاً في الكتاب نفسه تحت عنوان "اللسانيات التشومسكية"، وفيه عرض مهم لهذه النظرية وفق مراحل زمنية تبتدئ بسنة ١٩٥٧ حتى يومنا الحاضر :١٦، ١٧، ١٨.

(٥٨) المصدر نفسه : ٢١٩.

(٥٩) المصدر نفسه، مادة "اللسانيات التشومسكية" : ١٦ – ١٨.

(٦٠) تم اعتماد ترجمة ميشال زكريا لأنها الأدق لعنوان هذا الكتاب، ينظر كتابه "الألسنة التوليدية والتحويلية قواعد اللغة العربية" :١٢.

(٦١) المصدر نفسه : ٩١.

(٦٢) المصدر نفسه: ٩٢.

(٦٣) اللسانيات: المجال والوظيفة والمنهج: ١٧٧.

(٦٤) بحوث ألسنية عربية، : ٧٠.

(٦٥) القضايا الأساسية في علم اللغة (مترجم)، كلاوس هيشن، ترجمة / سعيد حسن بحيري: ١٧١ -١٧٢. وينظر : أهم المدارس اللسانية: ٧٥- ٩١.

(٦٦) ينظر: علم اللسانيات الحديثة: ٢٦٢ – ٢٦٥، وينظر: معجم اللسانيات الحديثة: ١٤١.

(٦٧) ينظر: معجم اللسانيات الحديثة : ٢٦ – ٢٧.